

تشكلات الصمت في شعر بشري البستاني

م.د. إخلاص محمود عبدالله
جامعة الموصل - كلية الآداب

ملخص البحث :

يتضمن بحثنا الموسوم (تشكلات الصمت في شعر بشري البستاني) محاور عدة هي :

١_ في معنى الصمت (إعطاء معناه بشكل عام)

٢_أنواع الصمت وحالاته وأهمها: (الصمت عن المدلول/ الصمت الذاتي الوجداني/ صمت التأمل/....).

٣_الصمت في شعر الشاعرة يتضمن : (الصمت وما يساويه/ الصمت وما يقابله / فرض الصمت/ رفض الصمت). فالصوت وما يساويه من دلالة (الحزن والهم والموت...) وما يقابله من (الصوت واللا صوت/ الحركة والسكون/ الكلمة واللا كلمة). أما فرض الصمت فهو التصميم من فرض القوة والسلطة الإجبارية . ليأتي رفض الصمت رد فعل طبيعي ضد القوة المتسلطة تجاه الذات وما تمثله .

٤_ لغة الصمت وهي في (الصمت والتسمية/ تشكيل الصمت). يشمل الأول تشكل الصمت في تسمية القصائد بدالات الكلمات التي تحمل الصمت، ويمثل النص منطق البوح عنها وتفسير مكنوناتها.

أما تشكيل الصمت، فيتمثل بالشكل عبر (النقاط، والنقطة، والفارزة). فيكون للصمت لغته الخاصة التي يبوح بها .

إن طبيعة الشعر تجمع بين الصمت والبوح معا _الصمت عن المدلول والبوح بالكلام الدال_، وطبيعي أن تتناوب هذه العلاقة وتتبادل فاعليتها ما بين الأنا والآخر في لعبة مثيرة من أجل تحقيق المتعة الفنية وجماليتها. فلا بد من توفر المرواحة بين عناصر الصمت والبوح، لنتم الموازنة الشعرية.

Silence in Bushra Al-Bustani's Poetry

Dr. Ekhlas Mahmoud Abdullah

Abstract

Our research entitled "Silence in Bushra Al-Bustani's Poetry " includes several axes :

1. The meaning of silence (giving its general meaning).
2. The kinds and states of silence like : silence on the signified / self and emotional silence / silence of meditation.
3. Silence in the poetess's poetry includes : silence and its equals , silence and its corresponding / silence imposition / silence refuse .So, sound and its equal significance (sorrow , worry , death ,...) and the equivalent of (voice and voiceless / movement and stillness / word and wordless) . Silence imposition is to be silent as a result of a compulsive force and authority . Then comes silence refuse which is a natural response against the self-oriented force and its representations .
4. Silence language in (silence and title / silence formation) . The first includes silence formation in title in the significances of words carrying silence . Text represents the base of revealing them and interpreting their secrets . On the other hand , silence formation is represented by formation via (points , a dot , and commas) . Thus , the special revealing silence language is formed .

مدخل : في معنى الصمت

إن معنى الصمت في المعجم العربي يعني صمت يصمت صمتا أطال السكوت، والتصميت التسييت والسكوت، ويقال للرجل إذا اعتقل لسانه فلم يتكلم. (١)

ومن هنا يظهر لنا أنواع الصمت منها : (الصمت بالكلام والسكون، والحركة بالفعل أو التفكير والتأمل). وشرطه أن يسكت اللسان عن الكلام . لكن في الشعر نجد اللسان ينطق بالشعر ليخفي دلالات الصمت عالقة فيه .

أما السكوت فهو خلاف النطق، وقيل سَكَتَ تعمد السكوت، ورجل سَكَتَ قليل الكلام . (٢) وسَكَتَ الرجل يسكت إذا سكن، وسكت إذا قطع الكلام، وأسكت عن الشيء أعرض . (٣)

أما عن الفرق بين الصمت والسكوت، فالسكوت صفة للجماة والحيوان، والصمت دلالة إلى معنى في النفس، ومن هنا فالصمت صفة للإنسان يتنوع بتنوع مدلولاته الوجدانية، ويوحى بالباطن والسكوت يكشف ظاهرا ، لذا فالصمت درجات أدناها السكوت (٤).

وما يدلنا عليه قوله تعالى ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ﴾ (٥)، فالسكوت يكشف عن حالة ظاهرية هي حالة الغضب التي تظهر على الإنسان، وقد وردت لفظة الصمت في القرآن الكريم مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ﴾ (٦). إذ تعني ضد الكلام والجهر، فالصمت هنا يساوي الكلام من عدم استجابة الآخرين لذلك لا فائدة مرجوة منه، لتعادل دقة الصمت بالكلام .

والكلام لا تدرك أهميته إلا من خلال نقيضه الصمت، فالصامت قد يحتج بصمته خوفا من هول المأساة، هذا إذا كان ثمة خوف من الكلام . (٧)

_ أنواع الصمت وحالاته :

إن طبيعة الشعر تجمع بين الصمت والبوح معا _الصمت عن المدلول والبوح بالكلام الدال_ ، ومن الطبيعي أن تتناوب هذه العلاقة وتتبادل فاعليتها بين الأنا والآخر في لعبة مثيرة من أجل تحقيق المتعة الفنية وجمالياتها. فلا بد من توفر المراوحة بين عناصر الصمت والبوح (الغياب والحضور)، لتتم الموازنة الشعرية كما يقول كمال أبو ديب، ومن هنا نجد أن هذه العملية أشبه باللعبة التي تنشط بين العناصر مما يحقق جانب الشعرية الأمثل .

ولا شك ان معرفة الصمت في القصيدة يستدعي استحضار الجانب السمعي مع الجانب البصري المعرفي، فدونهما لا تتم معرفته، ولعل هذا التداخل يتم بجمع الجانبين المعتمدين في الشعر، حينما كان الاعتماد على الجانب السمعي الذي يولي عناية خاصة بموسيقى الشعر، والآن أنصبت العناية على الجانب البصري وقضية تشكل النص الشعري، وبهذا فهي منطقة مفعمة بالأسرار تجمع القديم والحديث معا . إذن لابد من وعي الصمت، فيتم عبره تشكل كلام آخر أكثر عمقا وغنى، ومن خلال وصولنا إلى درجة عمق الصمت، ومحاولة فك شفراته نصل عندئذ إلى منطقة البوح لكن نتكشف ونظهر هذه المنطقة عن طريقنا، فحاولت الشاعرة الصمت عنه إمعانا في التجائها إلى المتلقي وقراءاته للوصول إلى البوح. فالنص لا يقول كل شيء بل يترك خبرا صمتيا علينا اكتشافه ،هذا الصمت المحفور في أعماق النص لا يمنح راحة للنص بل يتركه باستمرار مادام يسكت عن الحقيقة، فهو يمثل الحقيقة الممنوعة للبوح .(٨)

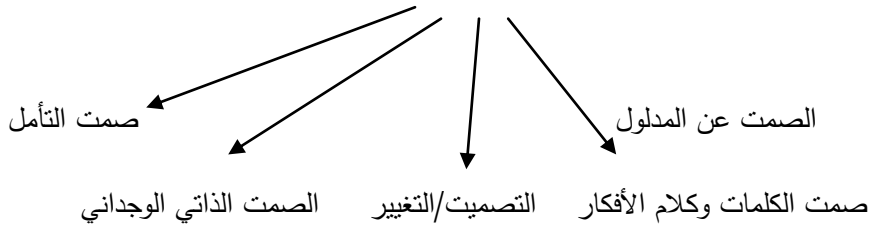
ويشير الصمت إلى الغياب والتغيب، وإن كان كذلك فقد سعى إلى بث وإثبات حضوره في القصيدة الحديثة جلبا للانتباه ،وهناك منطقة يجب أن تعان وترى بمنظور صحيح، فاستطاع _ وإن لم يفعل كلاميا _ أن يفعل رؤبوا الأفكار المسكوت عنها، ويشع بدلالات لم نتوصل لها ولا نعرف كنه أمرها .

والصمت ركن وصفة من الصفات الإنسانية والطبيعية، فطبيعة النفس البشرية تجنح إلى هذا أو ذاك، فأحيانا تراها تحب الاسترسال بالكلام و البوح عن المكونات وشعورها الداخلي، وتارة أخرى تراها تقبع بسكونيتها وبصمتها، ومن هنا فالصمت دلالة على معنى في النفس، فهو صفة للإنسان يتنوع بتنوع مدلولاته الوجدانية (٩) .

وليس كل صمت هو دلالة على السكون والسلبية من عدم اتخاذ موقف ما، وعلى سلبية الذات التي لا تريد المشاركة في الحوار، فقد يكون لغة بداخله لغة أخرى ، فيعبر بجمال أفضل مما تعبر عنه اللغة بالكلمات،

وبذلك يتخذ طابعا سيميائيا مجسدا بالحركات أو بالسكون المعبر عنه صموتا تأمليا ودلاليا يتجسد بلغة ثانية تتخذ طبيعة الإيحاء . لأنه ظاهرة وجدانية لا تعني فقدان الكلام أو التوقف عنه، فهو أكثر من حالة يستطيع الإنسان أن يضع ذاته فيها (١٠). فيشكل بذلك كلاما مسكوتا عنه، يغرينا للدخول نحو منطقة العمق، وربما يكون محاولة لفهم الكلام من خلال الصمت. (١١) وقد يستعمل كوسيلة من وسائل الدفاع والقوة، فإن كان للبوح ميزة وفضل، فللصمت فضلان معا، لما يشمله من دلالات عدة، تدخل في إطاره و توظف في مجاله .

وبذلك نعرف أنواع الصمت وحالاته بما يأتي :



_الصمت في شعر الشاعرة :

عند إمعاننا النظر جيدا في شعر الشاعرة نجد دلالة الصمت السلبية تتجسد بالظهور في أول دواوينها الشعرية، أما عن كونه كلاما مسكوتا عنه، فتشكل في آخر دواوينها، ليشير إلى عمق التجربة وذروتها، ومن ذلك نستشف أن دلالاته في البنية السطحية بانته من أول الأمر، ثم ما يخفيه من معنى باطني يطال العمق يتركز في خاتمة أعمالها، وبهذا فقد سارت الشاعرة باتجاه العمق في تأطير معنى الصمت .

والصمت بذلك اتجه كما القصيدة الحديثة إلى المرئي بدل المسموع ، كما تتفجر القصيدة من حيز الصمت وأعماقه التي تكتنز بالمشاعر الصاخبة والبركان الوجداني للانطلاق إلى حيز الوجود صوتا .

إن ما يتميز به شعر الشاعرة هو المزاجية بين الصمت والبوح في الدلالة الشعرية، بين البوح بالمكنونات والأسرار التي تحاول الإفصاح عنها بذكاء، وأحيانا تؤثر الصمت لإخفاء الدلالة المتجذرة في العمق وسترها، لتترك لنا شرف إظهارها والبوح بها، بالتقصي والبحث بعمق لاستخراجها .

إن ما تتميز به الشاعرة قدرتها على البوح في الوقت المناسب، فضلا عن قدرتها على الصمت في حينه . كما أنه ليس بالأمر السهل على الإنسان الجمع بين الأثنين في وقت واحد ، فالصمت ليس بالميزة السهلة التي تتفق مع روح كل إنسان وكل عصر . واستطاعت الشاعرة إحكام السيطرة على كلامها لتجعله صمتا وقت ما تريد. وألمحت لنا بهذا في شعرها فنقول :

((لا أحد يدرك سر اللعبة ،

إلا من خبر اللعبة

وانحلت بين يديه الأسرار)) (١٢)

فأصبح الصمت سرا على الآخر البحث عنه، ليحل رموزه ويفكها، وهو جزء من اللعبة. وهذه اللعبة المتكونة بين (الصمت والبوح) لا أحد يدركها إلا من كان له القدرة على فك شفرتها ، لتتحل بين يديه الإسرار . ولم تكن اللعبة الشعرية التي تفعلها الشاعرة فقط بل هي لعبة الحياة بأسرها بخفاياها وأسرارها .

وتقول :

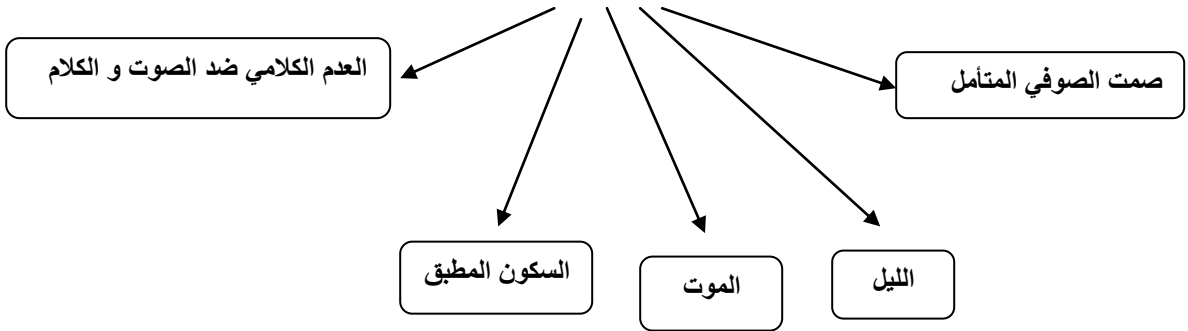
((هذا يوم آخر يأتي ..

سرّ اللعبة عندك ،

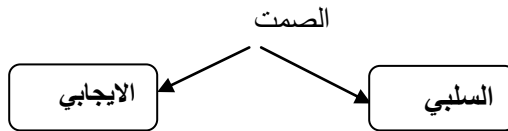
سرّ اللعبة عندي ...)) (١٣)

إن هذا التأرجح ما بين الصمت والبوح ينسحب من الذات إلى الآخر، لتضع المعرفة بهما مقترنة بالآخر (عندك) والذات (عندي)، فتحددها الصيغة المتبادلة ما بين الأنا والأنثى، ولتلعب في أفق المتلقي الذي يمثل الآخر أو العالم بكل الدلالات العصرية التي تحدث، متجلية طرفا رئيسا في تسييرها وتحريك دفتها ، فلا أحد يدرك السر إلا من خبر اللعبة . لذا فدلالات الصمت تتضمن :

دلالات الصمت



وتصب كلها في معنيين :



فالصمت السلبي يقابل بدلالته الغياب والتغييب والعدم والموت والسكون المطبق . أما الإيجابي عند الذات ، فهو نوع من التأمل والتفكير للوصول إلى حقيقة ما . أو الصمت بالدالات للوصول إلى مدلولات عدة . ومن الصعب حصر دلالة واحدة للصمت على طول القصيدة، إذ تشتغل الثنائيات بين الإيجابية والسلبية معه من (صوت، كلمة، حركة ، سكون،....).

لذا فإن الصمت في شعر الشاعرة تتوزع دلالاته بين ما يأتي :

أ / الصمت وما يساويه

ب/ الصمت وما يقابله

ج/ فرض الصمت

١_ الصمت ودلالاته في شعر الشاعرة :

أ_ الصمت وما يساويه : الصمت هنا يساوي (الحزن/ العقم/ الموت/ الداء/....). كما في :

((بجزننا العقيم ..

بصمتنا العقيم ..)) (١٤)

اكتسب الصمت دلالة (العقم) فلا ولادة ولا حياة تتمخض عنه، فنترشح دلالاته السلبية.

ويستمد معنى الاستمرارية و الموت في :

((أيها الصمت الذي أبلى ولا يبلى جداره ..

أيها الموت الذي يسحق رفات الربيع)) (١٥)

لكن دلالة الأمل والتفاؤل ظلت متواصلة على الرغم من دلالة الصمت السلبية المخيمة على النص وذلك في :

((أزرع الفل على صمت الجدار

أحصد النار وآه ..

أشربُ الغنوة نار .. !)) (١٦)

لتكن النتيجة بعد كل هذا ب :

((حينها أبصر في عينيك صوتي ..

حينها أبصر في عينيك صوتي

حينها أحتضن الوجه الذي عانق صمتي ..

لأغنيه ..

أغنيه .. وأبكي ! (((١٧)

إن لعبة الصمت والبوح متداولة بين الأنا والأنت، فالذات تبصر صوتها في عيني الآخر وكيف تحدث عملية الإبصار بالصوت بدلا من السمع، أليس ذلك من تبادل الحواس، ليتبادل معها موقع الأنا والأنت، فالآخر امتص معرفة الأنا المقابلة واكتسبها وحفظها في عينيه، فأصبحت رمزا ومعرفة سابقة مطلعا عليها، لنقترن عينا الآخر بالذات، فالصوت في العينين ترجم بالغناء صوتا وبكاء، وكأنها رسالة صمت خفية من الآخر عبر العينين إلى الذات بالغناء/الصوت وتستلمه العين بالبكاء، لتستكمل الدائرة المرسومة والمتبادلة بين الأثنين. فالصمت بالكلام تقابله لغة العيون التي تبوح بكل شيء، فالعيون تتكلم بصوت الآخر نفسه من جراء اكتسابها معرفته . فإذا كان الصمت لغة المحبين وكلاما يقال في الخفاء، فهو يبتعد عن صفته السلبية فتتجرد منه، وينتزع صفة الايجابية بكل قوة عندما يدخل في سياق الحب .

((تعبت غزلان العرش من الصمت ..

تعبت أحلام القلب من الصمت ..

من حولي تعب الصمت .. (((١٨)

إن هذا التكرار للصمت في نهاية الجمل يوحي بإنتهائه مع تضافر دلالة التعب المتواصل منه، ليعطي معنى زواله والتخلص من حالته السلبية وتترجم معناه السلبي في النص الآتي وتعطينا ما يتصف به من سلبية في بداية الجمل المتسطرة على سطح الورقة الصامت ليقابل ثلاثية الصمت المنتهية في النص معللة سبب سلبيته في: (الصمت سرنا القتل) .

وتعلن الذات تعبها المتواصل من شدة الصمت، كونه لا يطاق معبرة بالتكرار المتواصل لكلمة (الصمت)، ونجحت بوصفه الداء القاتل، وفي تشخيص سبب الداء الذي يقترن به .

((لا شيء كي تقول ..

فالصمت سرنا القتل

و الصمت داؤنا

و نحن نلتاع بلا أشواق ..

و الحب مجزرة ، ونحن مذبحون و الصمت لا يطاق !)) (١٩)

ب_ مقابلات الصمت : الصمت وما يقابله

هنا يتقابل كل من: (الصمت والصوت/ اللا كلمة والكلمة/ السكون والحركة). تقول الشاعرة:

((تريد أن تصرخ ..

أن تهز صمت العالم المنهار ..

فالصوت صامت هنا ..

و الموت لا لون له ..

و الحزن لا طعم له)) (٢٠)

الصمت المقابل للصوت ليُكون الضد من الصراخ والصوت ، فيتسم بطابع سلبي يغلف النص. لأن الصوت هو صامت في أصله، لا أحد يسمعه أو يصغي لمطلبه.

يلعب الصمت بين (أنا/هو)، فالذات/ أنا تحاول الابتعاد عن الآخر/هو، لأنها تخافه كما أن الصمت هنا متداخل مع الليل/ الحرف. أي الصمت لا كلام والكتابة الكلام. فهو يقابل الحرف/الكتابة .

((وأخشى الليل ..

أخشى الصمت ..

اخشى الحرف إذ اكتبه عنك)) (٢١)

الصمت يقابل الليل هنا ، ففضاء الليل المعتم الساكن المخيف يشبه فضاء الصمت الذي لا حركة فيه لكنها تقابله بالحرف أيضا ، ليتخذ مدلولاً كتابياً يشكل صمتاً باللغة ضد الكتابة . لكن الصمت هنا مقابلاً للخوف بمدلوله الواسع، بل أعلى مرتبة من الخوف يرتبط بالخشية ، وتكرار أخشى مع دلالة (الليل - جانب الرؤية /الصمت - سمعي/ الكتابة - جانب معرفي) يكرس الجوانب التي ألمحنا إليها سابقاً . من بين الوشائج التي ترتبط بالصمت (الليل/الحرف) الليل بكل ما يعبر عنه من ألم وخوف ووحشة وصمت. والحرف وما يعبر عنه من كلام وحركة ومواصلة . إذن الذات تخشى وتخاف الأثنين معاً ، لأنها على يقين بأن كلا فعلها لا يترجم بما يناسب الموقف .

((خلني أقذف بالكلمة بابك ..

خلني أرح صمتي ..

مرّ دهر وأنا أزرع في جذبك صوتي

ثم لم يزهر لديك ..)) (٢٢)

إن هذا النص يشكل الضد والجزء المقابل للسابق ، فالذات تستخدم الإعلان والقذف بالكلمة بعدما كانت تخشى كتابة حتى الحرف ، فيشكل الصمت مقابلاً للكلمة (أزرع في جذبك صوتي/ ثم لم يزهر لديك)، والذات في حالة مواجهة وتحد للصمت ذات العامل السلبي ، والكلمة المقابل الحركي الذي تستدعيه وتستخدمه في مواجهة صمت الآخر الطويل الأمد .

جـ. فرض الصمت: التصميت/ الصمت والمرأة : (تصميت المرأة)

يلامس الصمت قضية مهمة هنا، هي قضية المرأة الصامت والمغيب صوتها. ويرسم معاناتها في نيل أبسط حقوقها المشروعة ، نجد ذلك في قول الشاعرة :

((تموت النساء ولكن بصمت

وتدفن لكن بليل

وتحكم كل الزمان بإكليل ورد

ويرفض رهط القبيلة ،

يرفض باسم الرجال !

دم في فمي

وسؤال يحاور صمت العشيرة

كيف تصيرين معبودة في الخفاء)) (٢٣)

اقتزن الصمت بالموت لتعميق دلالاته ولإعطاء بعده السلبي مساحة أوسع، فموت المرأة والنساء يكون في صمت وخفاء. ومن هنا يكتسب الموت دلالة خفية مصمتة يرمز إلى الموت المعنوي، ويتلبس دلالة الصمت الموحى بالتهميش والغياب القسري، كما يتخذ من دلالة الليل والدفن فيه قمة السرية والتأمر في خلصة على الحضور وإثبات الذات، وهذه المؤامرة المتخذة ليلا وفي صمت تام، يقابلها صمت العشيرة وعدم تحريكها ساكناً عبر تفعيل الصوت والكلام .

((في النشيج غبار

وفي الصمت غابة نار

كهوف الكلام تنام

على ساعد الليل ، ((٢٤)

في الصمت أسرار مظلمة وتكتوي الذات بنارها، والكلام المعلن تغير مكانه، وأصبح في الكهوف التي تحجبه وتبعده عن أداء مهمته من التواصل ليكتسح الصمت الجو المرسوم. ف(كهوف الكلام تنام) تقابل الصمت، لأنها في كهوف أولا وبطالها النوم ثانيا .

وفي القصيدة نفسها تقول :

((وصمتك ذاك الرسول المدجج

بالموت و الشعر

موت هو الشعر

شعر هو الموت

تطلع فيه المياه التي راودت زما ((٢٥)

فالصمت رسول وما على الرسول إلا إيصال رسالة ما، وهي تقتضي إعلان أمر ما، فكيف يؤدي الصمت هذه الرسالة وكيف يكون رسولا متضمنا (الموت والشعر) .

د_ رفض الصمت :

يشكل الصمت هنا عدما وحالة سلبية لا تطاق، شخصته بشكل كائن تريد تمزيقه، بعكس الواقع الذي يفرض عليها الكلام عنه بالجمال، فالذات في حالة رفض له .

تقول الشاعرة :

((أقول للصمت : جميل أنت .

لأنني لا أملك خنجراً أمزقه ..)) (٢٦)

فلا تجد إلا أن تضفي عليه الصفات الايجابية و تصفه بالجميل، لأنها لا تمتلك وسائل لمقاومته وردعه، فيا لها من نقطة احتيالية تتخذها و تمارسها، لمجابهة السلبية وأحد رموزها الصمت . هو نوع من الموارد للشعور الداخلي بالصمت. كما أنه لغة أخرى تقوم على الحوار الداخلي .

وما اتصف به الصمت من دلالات سلبية نتيجة اقترانه بـ (الموت/ الليل/ السكون/ الحزن/ العقم/ ..) وغيرها من دلالات سلبية تغطي على دلالاته الايجابية . وبعد كل ما اتصف به من سلبية تعلن الذات عن رفضها له بقولها :

((لعنُ الصمت الذي يزرع في الأرض تمنى)) (٢٧) .

فهو يشكل دائرة للتمني دون تحقيق مرجو للحلم .

وقد نجد دلالة الصمت الايجابية التي تحس الذات من خلالها بسلبية الموقف في :

((بهدوء يتسلل نحوي

قلت له :

لا تدخلي في تجربة الصمت

بل أدخلي في الإعصار ..

حتى تطهر في النار)) (٢٨)

فالذات ترفض الإمعان في الصمت بل تطلب تجربة الإعصار، لتقتحم عالم الحدث والانفصال. كما يشكل الصمت وسيلة من وسائل الصراع والمقاومة، يسير جنب الكلمة في القصيدة نفسها :

((نصارع بإثنين ..

الصمت المقهور ..

و الكلمة .. !))(٢٩)

تسعى الذات إلى الرقي به واستخدامه بجانب الكلمة للمواجهة، والصمت يتراوح بدلالته السلبية والايجابية والذات تتخذ مسارين اما الرفض له ومقاومته حينما يشكل السلبية المطلقة، أو الإمعان والرضوخ له نتيجة سيطرة عوامل السلب والضعف على مكنوناتها الداخلية وإرادتها المتنامية للإيجابية .

وبذلك شكل الصمت في شعر الشاعرة عالما مخيفا مليئا بالسكون والظلام والخوف المتسرب إلى دواخلها العميقة، قد طبع أثره في بداية شعرها ، لكنه انسحب بدلالته السلبية في آخر دواوينها، ليتجسد بالصمت الموحى الايجابي، وبذلك أحكمت السيطرة على مدلولاته، وتمكنت من عدم السماح بسلبية التسلل لعمق ذاتها .

((كان الصمت في عينيك ،

يجتاز الممرات ،

ويمتد إلى هاوية أخرى ،

وكان الليلك الوردي

يتساقط ..))(٣٠)

٢_ لغة الصمت في شعر الشاعرة :

يتضمن الصمت وجها آخر للبوح لكن بطرائق مخفية غير ظاهرة، فهو قناع للبوح، والذات تبوح عن صمتها في الشعر. لكن تترك أسبابه غائبة نكتشفها من خلال الشعرية التي تبوح بخفاء حيناً وتعلن عن صمتها حيناً .

فللصمت لغة أخرى يبوح بها، فنراها مثلا في (لغة الإشارات/ لغة الرموز المكتوبة/ الحوار الداخلي للذات). فضلا عن لغته الإستكشافية في المدلولات بالنسبة لطريقة المتلقي للقصائد. إذن يبوح الصمت بلغة أخرى/ثانية نأخذها في شعر الشاعرة في(الصمت والعنوان/تشكيل الصمت).

أ_ الصمت والتسمية :

إن الصمت يمد جذوره إلى عناوين القصائد لا إلى النص فقط . لذا نرى بعض قصائد الشاعرة قد عنونت بالصمت، ومن هنا ندرك مدى تمركزه في شعرها عتبة عنوانية أو جملة نصية تدخل في صميم اللعبة الشعرية، معلنة بشكل أو بآخر عن نزيف الصمت بداخلها بحالته الإيجابية أو السلبية وبتقابلته مع العناصر الأخرى .

والقصائد التي عنونت بالصمت هي : (صمت/أندلسيات لجروح العراق، صمت أنثوي/ مواجع باء_عين، صمت / أقبل كف العراق ، جراحات صامتة / ما بعد الحزن) .

فالصمت لا يتسرب إلى القصيدة، ويمس عمق مدلولاتها فحسب . بل يأخذ عمله من العتبات الأولى للقصائد والمتمثلة ب (العنوان)، إذ عنونت هذه القصائد بلفظة الصمت.

في قصيدة (صمت) يتجسد الصمت كائنا تحاوره الذات، إذ علمها التأمل في الطبيعة في مقابل الكلام الداخلي .

((أنت علمتي أن أجوب البراري أن أتأمل حزن الشجر

أنت علمتي أن أثّر في داخلي))(٣١)

فيتحول الصمت إلى حالة إيجابية تعطي الذات قوة داخلية عبر التأمل للمواصلة . وبهذا شكل العنوان المفرد الخالي من التعريف (صمت) دلالات تعريفية عدة _تعرف العنوان وترسم ملامحه_ في القصيدة .

في قصيدة (صمت أنثوي) العنوان يحدد الصمت ويخصصه ب (أنثوي) إذ يعلن مذ بدئه عن نوعيته، فهو صمت خاص بالأنوثة لا غير .

وعند النظر إلى النص نجد هذه الأثوثة خاصة تنطلق نحو التعميم، فتمس كل ذات أو أرض أو تربة إلخ. والصمت يكون محورها الأساس، فيتصارع بدلالاته الإيجابية والسلبية في النص، بين قوته الحركية المغيرة في :

((داخلي يكتب الشعر

في داخلي يصرخ الصمت

في داخلي تتحرر كل المعارك)) (٣٢)

فالصمت لغة أخرى لغة داخلية حركية مغيرة . ونقول :

((ما أوجع الصمت إذ يتساقط سرب البجع

رويدا

على واحة من وجع)) (٣٣)

الصمت يساوي الحركة، وقوة الذات الداخلية في مقابل الموت والسكون، ليستمر سكون الصمت في مواجهة حركة الدم وإيقافها (أعطب الصمت دمي) .

وتقول :

((سيدي الصمت

يا سيدي

كنت لي وطنًا آمنًا

وسرير سكون

ولكن نبعا سقاني جرعة خمر

وأشعل في الظنون ((٣٤)

فالصمت نوع من الراحة والطمأنينة الداخلية في مقابل الحركة السلبية المتمثلة بـ (الظنون) .

وفي قصيدة (صمت) تقول :

((من يومها ،

و الروح عصفور جريح

في عذاب الجسد السجين

لأثبة بحب فارس حزين

تطوف حول داره

تحط في رحاله

لكنه مكبل بالصمت

لكنه مكبل بالصمت ((٣٥)

إن الروح هائمة كالعصفور لكن الجسد سجين، هكذا تشعر الذات بكونها روحا كالعصفور الجريح يمتلك وسائل الحرية و البراءة، لكنه جريح نتيجة سجن الجسد ، وقد نجحت في نقل الشيء الداخلي وإبرازه إلى الخارجي وإعلانه عبر عملية التشبيه هذه (تشبيه الداخلي- الروح - بالخارجي الطبيعي - العصفور -) .

كما أن التكرار يمارس في تعميق دلالة الصمت السلبية ، فهو يكبل الفارس الحزين يمنعه من مواصلة تقدمه، الذي يرمز إلى الوطن المكبل بالدلالات السلبية كلها، التي تمنعه من الوصول إلى الضفة الأخرى نحو

ايجابياتها، فالصمت طال الجسد بسلبيته، ولم يمس الروح لتبقى حرة طليقة لا يؤثر فيها الصمت بدلالاته السلبية، إذ يمثل قيда يحد من الحركة و الكلام معا .

الفارس = الحلم = الغياب و الصمت .

فالصمت يمثل السطوة الخارجية، التي تقيد قوة الفارس أو الحلم ،وتمنعه من تحقيق ما يصبو إليه .

وبهذا شكل العنوان بنصه، أو مفرداته ذات الدالات الصامتة كلاما، أو لغة أخرى ينطق بها نص القصيدة .

ب_ تشكيل الصمت : (كلاما مسكوتا عنه)

يتمثل الصمت بالتشكيل عبر (التقاط / النقطة / الفارزة / ...) بوصفه قطعا وصمتا زمنيا، لئنتمى دلالة المسكوت عنه. فعلاوات الترقيم تدعم أوقات الصمت ،بما تشكله من زمن ساكن غير مشغول داخل النص، الذي يشغل زمنا ايقاعيا ولغويا (٣٦). ولاسيما إن اقترنت هذه العلامات ومنها النقاط بكلام مقطوع أو جملة مبتورة في أجزائها .

فالنقاط تكشف عن لون مخصوص من الحوار الصامت، ليستحيل إلى بنى صامتة، تخفي وراءها جملة من البنى الناطقة، تكشف عن الأفكار والرغبات الممنوعة بفعل ضغوط الواقع(٣٧).

فجاء الصمت عن المدلول بواسطة الرموز الكتابية كما في :

((عاد الموسم

لكن ليلي لم تأتِ

بل جاءت أشرعة سوداء ،

و أشرعة صفراء

و)) (٣٨)

يشكل الصمت هنا قطعاً كلامياً يتوقف عنده الكلام، مع ترك النقاط تعبيراً عن المسكوت عنه رغبة في مواصلة الحديث، لكن عبر مشاركتنا له، وملاً فراغاته المتروكة، وهذا الكلام المسكوت عنه يوحي بمدى الشر القادم والمستنزف للذات، ليمنعها من المشاركة وإعلان حضورها و يتركها في صمتها، إذ إن الصمت هنا ليس تعبيراً للدلالة بقدر ما هو غياب للغة الكلام، ليتخذ شكلاً من أشكال التلغظ عبر الغياب، وبروز درجات من التعبير أكثر كثافة، فالصمت يعد أكثر المجالات تعبيراً عن التأمل والبحث، كما يعد لحظة محاورة مع المتلقي تحمله من شعرية الكلمات إلى شعرية الصورة البصرية (٣٩)، وهو صراع بين الخط والصمت ولا يكون إلا انعكاساً للصراع الداخلي للذات.

أما استخدام القطع الكلامي أو الحذف في القصيدة، فقد يكون نتيجة لعوامل داخلية لا يمكن البوح بها ببعض الألفاظ، وقد لا يُرغب في ذلك غصاً من شأنها (٤٠).

((هل يكذب القمر ...

نعم

ويخجل إذ

تبكي على زنده الآثار ،

و الصور ...)) (٤١)

إن وضع النقاط يجعل النص الغائب على قدر من الأهمية، لأن الشاعرة أرادت ان تلفت انتباه المتلقي إلى جزء من النص غاب و حقه الحضور مما يفتح المجال لتأويلات متعددة، وتعلن أن ثمة جزءاً يصعب البوح به ومسكوتاً عنه (٤٢). وإن كانت هذه العلامات نوعاً من الصمت، فهو يشكل عملاً واعياً وسبباً لوجود النص وتشكله، فالنقاط تفرض مساحات من الصمت يمكن استكناه دلالتها كدلالات الكلام، ليفصح الصمت عن معاناة الذات الحقة.

لتقول: ((أهدأ ليلك يا وطني ،

ما أطوله

ما أسود خصلات ذوائبه .. ((٤٣)

وتستكمل قولها :

((و تزهو ثانية ،

في قمم الوطن العربي

و أعرف ،

أعرف ،

من سيهدم هذي الأسوار

يا آخر هذا الليل ((٤٤)

إن الذات واثقة بانتهاء الصمت السلبي، وهو المقترن بدلالة (الليل)، مع وضع النقاط بجانبه إمعانا في استمرار دلالاته التي اتخذت مدة من الزمن طويلة نسبيا، كما يقترن الصمت المتمثل بعلامة (السكون) بدلالة المسكوت عنه، فلقد جمع الليل دلالة الصمت بما عهد فيه من سكون وظلام يلف المنطقة إذا خيم، وجاء مع الوقف الصمت بـ (السكون) الحركي الزمني، وحضر الكلام المسكوت عنه بنقاط تؤازر المعنى وتدعمه .

((قلت :

كل الزمان

صالح للتشرد ،

كل المكان

صالح للتوحد ،

كل المدى

صالح للحلم ((٤٥)

ونقول :

((فأنصتي للريح إن تبعثرت

و اختبأت في السور

لا تحني الرأس لدى مرورها

قد وقع المحذور ((٤٦)

إن الكلام المسكوت عنه عبر النقاط خست به المكان، وأعطت للزمان اللغة التفسيرية، فهو صالح للتشرد ولم تعطها للمكان، ولم تحدده بل خصته بكلام صامت ،لتأتي جملة (صالح للتوحد) بعد صمت نسبي تشكله النقاط، وترسم الشيء نفسه مع الفقرات التي تأتي بعد ذلك في (كل المدى) و(صالح للحلم) . وتترك نقاطا بعد (وقع المحذور)، لتدعنا نكتشف أي محذور قد وقع .

((فمددت كفي ،

و انتشلت ثيابك الزهر ،

انتشلت عيونك الخضر ،

انتشلت عذاب حبي ..

في الليل ،

كنت أجوس ما بين انتمائك

و اغترابي ((٤٧)

إن الصمت يعد كلاماً يحدث في العمق، وتركت لنا الشاعرة النقاط طافية على السطح، لتخبرنا عما
يعتمل في الداخل و يجري غليانه حين تضع ثلاث نقاط في بداية الأسطر فقط . يأخذ كل سطر نقطة
خاصة به، فتترك لنا صمماً نستطيع أن نستشف معناه من تكرار ثلاث مرات (انتشلت)، فهي تدل على
الفعل الذي قامت به للآخر من الأشياء الثلاثة في: (ثيابك الزهر/عيونك الخضر / عذاب حبي) .

((تلك الجبال ،

الجبال ،

الجبال طيور تكابد ...

مناف ...

حصون ،

حقول من الزعتر المرّ ، ((

((الجبال سياط تغالب ...

تهادنني ،

(لا أهأادن)

((يا قمر الجبال

عرج على السفوح

فوجهك الفتان

يولد في الجروح

... .. (((٤٨)

تمثل (قصيدة العراق) نزفا صامتا و صرخة مدوية في العمق، هي تبث حضور (الجبال) وبتكرار هذه المفردة الدائم، لتعلن ما هو مغيب في الحقيقة ،ويعاني الانعزال ،إذ غابت الجبال وافتقدت لجزء مهم من الوطن في وقتها، فتركت الشاعرة الكلام مسكوتا عنه، وهذا هو السبب وراء صمت تشكل النص ووراء صمت الجبال . وغياب هذا الجزء من الوطن عن أداء مهامه ووظيفته الشرعية آنذاك، فالجزء لابد أن يلتحم بالكل، ليعلن عن الحضور الفعلي وتغييب الغياب وبث شرعية الوجود .

_ الهوامش :

- ١_ ينظر: لسان العرب ، ابن منظور : ٧٨٦ / ١
- ٢_ ينظر: المصدر نفسه : ٧٧٦/١ .
- ٣_ ينظر: المصدر نفسه : ٧٧٨ / ١ .
- ٤_ ينظر: في فلسفة اللغة : ٩٦_ ٩٧
- ٥_ سورة الأعراف، الآية : (١٥٤)
- ٦_ سورة الأعراف، الآية : (١٩٣)
- ٧_ ينظر: محمود البريكان بين فلسفة الصمت وصمت الفلسفة : ٢٣٣
- ٨_ ينظر: جماليات الصمت : ٦١
- ٩_ ينظر: في فلسفة اللغة : ٩٦
- ١٠_ ينظر: المصدر نفسه
- ١١_ ينظر: جماليات الصمت : ١٩
- ١٢_ الأعمال الشعرية، البحر يصطاد الضفاف، بشرى البستاني : ٤١٥
- ١٣_ المصدر نفسه : ٤٠٧
- ١٤_ الأعمال الشعرية، ما بعد الحزن : ٦٢١
- ١٥_ المصدر نفسه : ٦١٥
- ١٦_ المصدر نفسه : ٦٠٣
- ١٧_ المصدر نفسه : ٦٠٦
- ١٨_ الأعمال الشعرية، الأغنية والسكين : ٥٧٥
- ١٩_ المصدر نفسه
- ٢٠_ الأعمال الشعرية، ما بعد الحزن : ٥٩٩
- ٢١_ المصدر نفسه :
- ٢٢_ المصدر نفسه :
- ٢٣_ الأعمال الشعرية ، زهر الحقائق : ٥٢١
- ٢٤_ الأعمال الشعرية ، أندلسيات لجروح العراق : ١٦٧
- ٢٥_ المصدر نفسه : ١٦٧
- ٢٦_ خماسية المحنة، أنا والأسوار : ٢٤٨
- ٢٧_ الأعمال الشعرية، ما بعد الحزن : ٦٢٧
- ٢٨_ الأعمال الشعرية، البحر يصطاد الضفاف : ٤١١

- ٢٩_ المصدر نفسه : ٤١٥
- ٣٠_ ما تركته الريح : ٦٨
- ٣١_ الأعمال الشعرية، أندلسيات لجروح العراق : ٢٠٧
- ٣٢_ الأعمال الشعرية ، موجع باء_عين : ٣٠٨
- ٣٣_ المصدر نفسه
- ٣٤_ المصدر نفسه
- ٣٥_ الأعمال الشعرية، أقبل كف العراق : ٤٥١
- ٣٦_ ينظر: الزمن في الشعر المعاصر، سهام جبار هاشم ، رسالة ماجستير : ١٨٠
- ٣٧_ ينظر : الخطاب الشعري الحديث من اللغوي إلى التشكيل البصري، رضا بن حميد، مجلة الحياة الثقافية، تونس، العدد ٦٩ - ٧٠ ، لسنة ١٩٩٥ : ١٥-١٦
- ٣٨_ الأعمال الشعرية، البحر يصطاد الضفاف : ٣٩٩
- ٣٩_ ينظر: الخطاب الشعري الحديث : ١٨
- ٤٠_ ينظر: دينامية النص ، د. محمد مفتاح : ٥٨
- ٤١_ مكابدات الشجر : ٤٩
- ٤٢_ تقنيات التشكيل البصري في الشعر العربي المعاصر، سامح الرواشدة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات، الاردن، العدد ٢، لسنة ١٩٩٧ : ٥١٧
- ٤٣_ مكابدات الشجر : ٢٦
- ٤٤_ المصدر نفسه : ٣٠
- ٤٥_ المصدر نفسه : ٥٣
- ٤٦_ المصدر نفسه : ٥٦
- ٤٧_ ما تركته الريح : ٤٦
- ٤٨_ مكابدات الشجر : ١٢ ، ١٣ ، ١٦

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

_ الكتب

- الأعمال الشعرية (١٩٧٠-٢٠١٠)، بشرى البستاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠١٢.
- جماليات الصمت في أصل المخفي والمكبوت، إبراهيم محمود، مركز الإنماء الحضاري، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢.
- خماسية المحنة، أعمال غير كاملة، بشرى البستاني، دار فضاءات، عمان، ط١، ٢٠١٣.
- دينامية النص، تنظيم وانجاز، د. محمد مفتاح، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٨٧.
- في فلسفة اللغة، كمال يوسف الحاج، دار النهار للنشر، بيروت، ط٢، ١٩٧٨.
- لسان العرب، جمال الدين أبي الفضل ابن منظور الأنصاري، حققه عامر أحمد حيدر، راجعه عبد المنعم خليل إبراهيم، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط١، ٢٠٠٥.
- ما تركته الريح، بشرى البستاني، من منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠١.
- مكابدات الشجر، بشرى البستاني، دار الشؤون الثقافية العامة (افاق عربية) بغداد - العراق، ط١، ٢٠٠٢.

_ الدوريات :

- تقنيات التشكيل البصري في الشعر العربي المعاصر ، سامح الرواشدة ، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات ، الاردن ، العدد ٢ ، لسنة ١٩٩٧م.
- الخطاب الشعري الحديث من اللغوي إلى التشكيل البصري ، رضا بن حميد، مجلة الحياة الثقافية ، تونس ، العدد ٦٩-٧٠ ، لسنة ١٩٩٥م.
- محمود البريكان بين فلسفة الصمت وصمت الفلسفة، بيت الحكمة، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ٢٠٠٨.

_ الرسائل الجامعية

- الزمن في الشعر المعاصر (١٩٦٠-١٩٦٩) ، سهام جبار هاشم ، رسالة ماجستير ، إشراف د. ضياء خضير ، مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة بغداد ، ١٩٩٠م.